القهرمانات في العصر العباسي

د. بدري محمد فهد

لعبت الجواري دورا في الحضارة الاسلامية ، وكان لوجودهن آثار لا تنسى فهن أمهات لبعض الخلفاء ، ومحظيات لآخرين ، ومنهن الخدم بشتى أنواع الخدمة . كما كان منهن صديقات للادباء والشعراء ومنهن الاديبات الظريفات والشاعرات المبدعات ، والمغنيات المتفوقات أو العازفات البارعات . ولقد ملأت أخبار هاتيك الجواري الظريفات دواوين شعراء العصر العباسي لاسيما الاول منه . وكن كثيرات موزعات في دور مختلف فئات المجتمع على اختلاف درجاتهم الاقتصادية أو العلمية والثقافية . فأشعن النكتة والظرف ، كما نشرن في المجتمع أنماطا من الأزياء في اللباس والمظهر أو ما يسمى في أيامنا هذه (بالموضة) . وكان للمترفات منهن

ممن عشن في قصور المترفين من رجال الدولة أو الاغنياء دور في انتشار أنواع كثيرة من العطور المختصة بالنساء. ولقد هيأت لهن حضارة بغداد الوسائل المادية لذلك من معاجين وأصباغ وألوان وآلات فصبغن الخدود وحمرن الشفاه ولون الشعور بمختلف الالوان وطيبن الاجسام والافواه بمختلف العطور من مرشوش وممضوغ ، وجملن العيون وزججن الحواجب ، وغيرن ألوان البشرة . حتى اقتضى ذلك تأليف الكتب لتنبيه الناس الى هذه الحيل التي قد تنطلي على الناس بالطلاء وأنواع الالوان التي تخفي العيوب وتظهر المحاسن والمفاتن . كما تنبه الناس وخاصة من يرغب في شراء جارية على أنواع الخداع والمكر الذي قد تعرفه الجارية ، وتحذر ذوي السلطان من الموظفين من شراء بعض الجواري اللاتي يبعن عن عمد لغرض التجسس على هؤلاء الموظفين ورصد حركاتهم في بيوتهم ونقلها الى ذوي الشأن (1) . فقد جاء عن الخليفة المأمون انه كان يدس الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار من شاء . (2)

ولما كانت دور الخلافة تحوي أعدادا كبيرة منهن ـ وقد قيلت في أعدادهن مبالغات لسنا بصددها ـ فكان من المعقول ان تبرز من بينهن الطموحات ممن حباهن الله

---

(1) انظر كتابنا العامة فى القرن الخامس الهجري : فصل الجواري .
(2) جرجي زيدان : التمدن الاسلامي : ج 5 ص 37 .

بالجمال الفائق أو الذكاء الحاد والنظر النافذ وان يؤثرن في الحلفاء كما فعلت حبابة بالخليفة الاموي يزيد بن عبد الملك حتى كادت ان تذهب بعقله وشغلته عن مهام الخلافة (3) . الا ان هذا الكلام لا يصدق على الخلفاء المؤسسين ممن أقام الدول كمعاوية بن ابي سفيان وعبد الرحمن الداخل وابي جعفر المنصور الذين شغلوا بالتأسيس وقمع المخالفين والمعارضين ، وتأليف الاعوان وبناء الجيوش .

واذا كانت دواوين الشعراء قد خلدت اسماء بعض الجواري أو سجلت كتب الادب بعض المغنيات فان كتب التاريخ قد خلدت لنا أسماء من قمن بأدوار سياسية اختلفت خطورتها باختلاف عهد الدولة العباسية قوة وضعفا . وقد أطلق على هاتيك الجواري اسم القهرمانات فمن اين جاءت التسمية ؟ يرى الجواليقي ان كلمة (قهرمان) اطلها قرمان ، وان العرب على عادتهم قد يزيدون او ينقصون من الاعجمية ، وفي هذه الكلمة قد زادوا فيها (4) .

وجاء في تاج العروس ان القهرمان هو المسيطر الحفيظ على ما تحت يده . وتمثل بنصف البيت ، « مجدا وعزما قهرمانا قهقبا » ونقل عن سيبويه قوله هو فارسي،

(3) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 37 .
(4) الجواليقي : المغرب 8 .

والقهرمانة لغة فيه . وعن ابن بري القهرمان من أمناء الملك وخاصته ، وانه فارسي معرب . وعن أبي زيد انه قال : قهرمان وقرهمان مقلوبة وهو بلغة الفرس القائم بأمر الرجل . (5) ويبدو أن هذه القيمومة عهدت الى النساء أيضا كما عهدت الى الرجال . قال الالوسي القهرمانة بلغة الفرس القائمة بأمر الرجال . وأورد المثال التالي « المرأة ريحانة وليست بقهرمانة » (6) .

ونرى ابن خلدون يستعملها بهذا المفهوم ، أو قريبا منه عندما يجعل القهرمان مرادفا للحاجب ، فتحت عنوان الحجابة تناول ابن خلدون هذه الوظيفة بادئا بالعباسيين والامويين بالاندلس ثم معرجا على دول الغرب الاسلامي معلنا أن هذه الوظيفة لم تكن موجودة في دول المغرب لوجود البداوة ، الا ان (بني حفص) حكام افريقية احتاجوا لهذه الوظيفة لاتساع ملكهم وكثرة المرتزقة بدارهم بقوله « لاتساع ملكه وكثرة المرتزقة بداره الى قهرمان خاص بداره في أحواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرها وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج اله في ذلك على أصل الحجابة فخصوه باسم الحاجب » (7) واستعملها ابن خلدون مرة أخرى بمعنى القومة والحجاب بشكل عام

---

(5) الزبيدي : تاج العروس 9 : 38 .
(6) الالوسي : بلوغ الارب 2 : 8
(7) ابن خلدون المقدمة : 427 .

عند كلامه على ديوان الاعمال والجبايات حيث قال : اعلم ان هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة من الدخل والخرج واحصاء العساكر باسمائهم . وتقدير أرزاقهم وصرف اعطياتهم من اباناتها ، والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها قومة تلك الاعمال وقهارمة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك من الدخل والخرج ،،، » (8) .

وقد برز في أواسط العصر العباسي خاصة ، عدد كبير من القهرمانات ممن كن من جواري القصر ثم نلن هذه المرتبة ، وهي القيمومة بأمور زوجة الخليفة أو الخليفة نفسه ، حيث يكون للقهرمانة حق الدخول أو الخروج من قصر الخلافة والاتصال بالناس ، في حين لا تملك بقية الجواري هذا الحق . ويبدو ان القهرمانة كانت تلبس زيا خاصا يميزها عن بقية الجواري ، فقد وصف بزاز احدى جواري السيدة شغب أم المقتدر بالله ، والتي أصبحت فيما بعد قهرمانة « اذا بامرأة راكبة حمارا مصريا وعلى كفله منديل دبيقي ، وخادم ، وهي بزي القهرمانة فبلغت آخر السوق ثم رجعت فنزلت عندي » . ولما سأل البزاز عن أمر الجارية أجابه الخادم الذي كان بمعيتها « هذه مملوكة السيدة أم المقتدر ، وهي من أخص جواريها بها،

---

(8) نفس المصدر : 430 .

واشتهت رؤية الناس والدخول والخروج فتوصلت حتى جعلتها قهرمانة » . ولما أرادت أم الخليفة تزويج هذه القهرمانة أشرف الخليفة بنفسه على عقد القران (9) .

ولقد حضي عهد الخليفة المقتدر بالله بالنصيب الاوفر من تداخل الجواري في شؤون الحكم، وعلا شأن القهرمانات حتى لمعت على عهده اسماء عدد منهن ، وكان ذلك نتيجة ضعف الخليفة والدولة في تلك الفترة وهو ما لم تشهده دولة الخلافة ابان قوتها . فمن هاتيك القهرمانات : فاطمة التي كانت تملك أموالا عظيمة فقد أعطت ذات مرة شخصين مقدار 300.000 ألف دينار (10) عينا غير الهدايا . وقد غضب عليها الخليفة المقتدر ذات يوم ــ ولم يرد ذكر سبب غضبه ــ فأخذ ما عندها من المال ثم توفيت سنة 299 هـ . في شهر ذي القعدة واختلف في سبب وفاتها قيل مرضت ثم توفيت ، وقيل كانت راكبة في طيارها (11) في نهر دجلة فغرقت تحت الجسر في يوم ريح عاصف وأخرجت بعد يومين (12) ولعل وفاتها كانت مدبرة من منافساتها القهرمانات . ومن القهرمانات أم موسى التي كانت تتدخل في شؤون الوزراء ، وتستطيع ان تكيد لمن

(9) ابن الجوزي : المنتظم 6 : 254 .
(10) كان الدينار يساوي في كثير من الأوقات عشرة دراهيم فضية .
(11) الطيار : نوع من السفن كانت تستعمل في نهر دجلة .
(12) ابن الجوزي : المنتظم 6 : 112 .

يحاول ايقافها عند حدها . فقد جاء عنها أنها أتت ديوان الوزير على بن عيسى وهو أحد وزراء هذه الفترة ممن اشتهر بالعفة والدين مع فهم لادارة الدولة ومعرفة جيدة بتنظيم ميزانيتها ، وأرادت الدخول عليه ، وكان الوزير آنذاك يعلم أن منافسه الوزير السابق علي ابن الفـرات يسعى لابعاده والحلول محله مما جعله ضجرا متبرما ، ومما زاد في تبرمه كثرة مطاليب الحاشية ، لهـذا طلـب استعفاه من الوزارة ، الا أنه لم يعف منها . فلم يجسـر حاجبه على ادخال القهرمانة اليه أو أن يستأذنه في دخولها فردها عندما جاءت لدخول ديوان الوزيـر . فغضبت أم موسى وسارت الى الخليفة المقتدر والى أمه السيـدة شغب وتخرصت عليه أحاديث . فصرفـه الخليفـة عـن الوزارة ، وأمر باعتقاله عند القهرمانة زيدان بعد ان وزر ثلاث سنين وعشرة أيام وكان ذلك سنة 304 هـ (13) .

ويبدو ان أم موسى استطاعت بمالها من أعـوان أن تستولي على أموال كثيرة لم يأت ذكر تفصيلها الا نـه ذكر ان الوزير على بن عيسى انشأ ديـوان المقبوضات لتدبير وادارة تلك الاموال التي استخرجت من القهرمانة أم موسى وأعوانها ، وكان استخراج تلك الاموال قد تم

(13) مجهـول العيـون والحدائـق ج 4 ق 2 ص 263 ، 264 .

بواسطة القهرمانة ثمل (14) . وتوفيت أم موسى سنة 327 هـ ببغداد (15) .

ومن القهرمانات زيدان ، وقد ورد اسمها في حوادث سنة 298 هـ. عندما أمر الوزير ابو علي الخاقاني أحد اتباعه ابن ثوابة صاحب ديوان المصادرين بمحاسبة الوزير المنحى على ابن الفرات ومناظرته ، فيستأذن ابن ثوابة الخليفة في تعذيب الوزير السابق ابن الفرات ليستخرج منه ما يمكن استخراجه من أموال لتودع في خزينة الدولة، وكانت هذه الطريقة مألوفة في عهد انحطاط الدولة العباسية هذه التي نحن بصددها ، حيث يتولى الوزير الجديد مصادرة الوزير السابق واستخراج الاموال منه ومن أتباعه ، حيث كان لكل وزير بطانة تتولى بتوليته وتعزل بعزله ، وكان الوزير المنحى عن الحكم يحاول بذل الاموال لبطانة الخليفة ، وللخليفة ويوعده بوضع مبالغ معينة يغريه ليعيده الى كرسي الحكم ويعزل الوزير القائم ، ومن ثم يحين وقت انتقام الوزير الذي كان معزولا من الوزير القائم وبطانته . فأصبحت مصادرة الوزراء موردا لبيت مال الدولة ، وسمي الديوان الذي يشرف على الاموال المصادرة بديوان المصادرين . ولهذا وجدنا ابن الفرات يعذب ، ثم ينقل خبر تعذيبه الى الخليفة فيأمر بنقله الى بعض الحجر ليكون تحت اشراف القهرمانة

---

(14) مسكويه : تجارب الامم 5 : 84 .

(15) مجهول : العيون والحدائق ج 4 ق 2 ص 81 .

زيدان ، وبعد ان يتأكد الخليفة ان ابن الفرات لم يبق لـه مال ولا ذخيرة ، يأمر بالاحسان اليه . ولما كان ابن الفرات من ذوي الدراية بادارة الدوله لاسيما الميزانيه وجدنـا الخليفه يلجأ اليه بعد حين وهو في محبسه عنـد زيـدان يشاوره في كثير من الامور (16) .

وورد عنها خبر في سنة 303 هـ. على اثر خروج الامير الحمداني الحسين بن حمدان الى الزاب ، وكيف أن قائد الخليفة مؤنس جاءه بجيشه من مصر وحاصره ، فطلب الحمداني وعائلته الامان فجاء بهم مؤنس الى دار الخلافة ببغداد ، فأمر الخليفة بتسليمهم الى زيدان القهرمانـة وحبسهم عندها في دار الخلافة وكذلك القى القبض علـى الامير أبي الهيجا بن حمدان وحبس معهم أيضـا (17) . فمهمة زيدان هنا أشبه بالسجان في دار الخلافة ولعل ثقة الخليفة بها، أدى الى أن يوكل اليها سجن الامراء أو الوزراء خوفا من تآمرهم وشغبهم .

وجاء في سنة 304 هـ ان ابن الفرات أعيد الى الـوزارة فبادر الى مصادرة الوزير الذي كان قبلـه أبـي علـي الخاقاني ، وكذلك علي ابن عيسى وأخذ منهمـا أمـوالا كثيرة . وفي خلال ذلك أمر الخليفة أن يرد لهذا الوزير ابن الفرات ما كان قد أخذ منه من ضياع ثم أرسلت اليه أم

(16) مجهول : العيون والحدائق : ج 4 ق 1 : 238 .
(17) مجهول : العيون والحدائق : ج 4 ق 1 ص 261 .

الخليفة هدايا وتحفا . وهي بلا شك على سبيل المصانعة والمداهنة . ثم كافأ الوزير القهرمانة زيدان التي اوكلت به عند حجزه في دار الخلافة باعطائها واردات بعض المناطق الزراعية (18) ، ويبدو أن ذلك كان بسبب الرعاية التي أبدتها زيدان خلال حجزه عندها .

ولعل القهرمانة زيدان قد لعبت دورا في مجيء الخليفة المقتدر سنة 295 هـ. أو ساهمت بشيء في أثناء ذلك مما جعلها من المقربات . وكان المقتدر قد تولى الحكم وهو صغير عابث ضعيف الشخصية ، أدى عبثه الى افناء ما كان مخزونا من جواهر الخلفاء في دار الخلافة ممن تعاون على جمعه كثير ممن سبقوه في الحكم . فحين تولى المقتدر الخلافة بادر الى اعطاء الجواهر لخدامه أمثال صافي الحرمي ولوزيره العباسي الذي رده ولم يأخذه باعتباره من كنوز الخلفاء لا يصلح أن يوزع . وتمكنت القهرمانة زيدان من ذلك الجوهر وأخذت منه سبحة لم ير مثلها ـ كما قيل ـ وأصبحت تضرب بها الامثال فيقال سبحة زيدان . وشاءت الصدف أن يسأل عن السبحة هذا الوزير علي بن عيسى عند توليته الوزارة ، ويخبر الخليفة بأن ثمنها 300 ألف دينار ، وأنها أخذت من ابن الجصاص ، وهو أحد أثرياء هذا العصر فأجاب الخليفة أنه يعتقد بوجودها في الخزانة ثم أمر بطلبها فأجيب بأنها غير موجودة وهنا

(18) نفس المصدر السابق : ج 4 ق 1 ص 266 .

بادر الوزير علي بن عيسى باخراجها من كمه وقال للخليفة اذا كانت خزانه الجوهر لا تحفظ ، فما الذي يحفظ ؟ وأخبر الخليفة بأنه اشتراها فتألم. ويبدو ان العهود التالية لم تكن أحسن حالا في عهود القاهرة ، والراضي حيث لم يبق من جواهر الخلفاء المخزونة شيء (19) .

ومن القهرمانات من أنيطت اليهن النظر في المظالـم كما حصل لمثل قهرمانة السيدة شغب أم الخليفة المقتدر وهذا ما لم يحصل من قبل في التاريخ الاسلامـي ، حيث كان النظر في المظالم يعهد الى شخص يكون عادة من كبار رجال الدولة كي يستطيع أن يحكم في أي قضية تعـرض على مجلس المظالم دون خوف ، خاصة اذا كانت القضية موضوع المرافعة تتعلق بكبار الموظفين كالولاة والقادة وبعض أفراد العائلة الحاكمة ولهذا تولى النظر في المظالم الخليفة المهدي ، والرشيد . ومن غرائب هذه الفترة ان تجلس القهرمانة ثمل بأمر السيدة شغب في سنة 306 هـ . في منطقة الرصافة لتنظر في رقاع الناس في كـل جمعـة فجلست وأحضرت معها القاضي أبا الحسن ابن الاشناني، وخرجت التوقيعات (الاقضية) من لدنها على السـداد . ويبدو أنها كانت تحضر الفقهاء مجلسها لاستشارتهم (20) ولما كان لمثل هذا المركز في عصرها ذاك فكان لا بد ان يكون لها ضلع فيمايحال من مؤامرات وما يقع من شغب.

---

(19) ابن الجـوزي 6 : 70 .

(20) ابن الجـوزي : 138 .

وفعلا ورد عنها أنها ساهمت مع نصر الحاجب على تنحية الوزير ابن الفرات بعد وزارته التالثة سنة 311 هـ ، والمجيء بابن القاسم عبد الله بن محمد بن عبد الله الخفقاني الى الوزارة . وفعلا نحى الوزير الاول وصودر وجيء بالثاني وكانت ثمل ونصر الحاجب قد اتفقا سرا مع القائد مؤنس الخادم (21) .

ومنهن القهرمانة اختيار التي كان لها دور في افشال المؤمرات على عهد الخليفة القاهر بالله وذلك سنة 321 هـ حيث اتفق الوزير القائم ابن مقلة مع القائد مؤنس الخادم على تنحية الخليفة القاهر وتولية ابي أحمد ابن المكتفي بالله . الا ان الخليفة كان يترأس مع قادة آخرين ويحرضهم ضد مؤنس ويمنيهم الاماني الكثيرة . حيث كان الجيش في هذه الفترة مقسما الى فرق اتسمت كل واحدة باسم قائدها أو اسم المهمة المنوطة بها كالحجرية والساجية ، وكان دور اختيار القهرمانة في هذه المؤامرات التي تحاك سرا أي تخرج من دار الخلافة وتمضي ليلا الى دار أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله (احد الوزراء) وتشاوره في أمور القاهر . ولما علم الخليفة بما بيته المتآمرون عليه ودبر أمره مع من اتفق معه سرا أمر بالقبض على مؤنس الخادم ومن تعاون معه الا ان الوزير ابن مقله هرب واستتر بعد ان وزر تسعة اشهر وثلاثة

---

(21) مجهول : العيون والحدائق : ج 4 ق 1 ص 314

أيام . ووجه القاهر الى أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله فاستحضره في مستهل شعبان وقلده الوزارة وخلع عليه في يوم الاثنين ثالث شعبان خلع الوزارة (22) .

الا أن اختيار لم تنج من عقاب المتآمرين حيث عادوا الكرة وراسلهم الوزير الهارب ابن مقلة الذي كان يتراسل مع الفرقتين العسكريتين الساجية والحجرية ويحرصهم ضد الخليفة القاهر ويغريهم بالمكاسب التي سينالونها وكان السفير بينه وبينهم الحسن بن هارون الذي كان يلقاهم بزي السؤال ليلا ، وفي يده زبيل حتى تم الاتفاق على المؤامرة . وكان الوزير الهائم انذاك الخصيبي ، وقد بلغه الخبر فأرسل طبيب الخليفة عيسى لينذره ويخبره بالحال ، فوجده نائما مخمورا ، واجتهد في انباهه فلم ينتبه لشدة سكره . وفي هذه الاثناء تقدم القائد سيما العساكر وحاصر دار الخلافة ، وأمرهم بالهجوم في وقت معين . وقد استطاع الوزير الخصيبي أن يفلت من هذا الطوق بأن يلبس زي امرأة . أما الخليفة فانه بعد ان افاق هرب الى سطح احد دور الخلافة . الا ان المتآمرين عرفوا مكانه وأنزلوه وحبسوه . ثم قبضوا على خادمه ، وطبيبه عيسى والقهرمانة اختيار . وجاء المتآمرون بأبي العباس محمد بن المقتدر بالله مع أمه من محبسه على العادة الجارية في هذه الفترة التي سادت فيها الفوضى وذهبت فيها هيبة

---

(22) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري : 77 .

الخلافة وتمكن بعض الوزراء بالاتفاق مع الجند الاتراك من العبث بالخلفاء ومؤامرة المنافسين فيعمدون الى سجن المرشح للخلافة من بني العباس حتى يصعب الاتصال به والتآمر على الخليفة القائم . وهكذا جيء بأبي العباس من محبسه وبويع بالخلافة ولقب بالخليفة الراضي بالله (23)

وبرزت قبل دخول البويهيين بغداد سنة 324 هـ القهرمانة علم وكان هؤلاء البويهيون قد جاءوا من بلاد الديلم ودخلوا فى سلك الجندية ثم كونوا لهم جيشا وسيطروا على بلاد المشرق الاسلامي بما فيه العراق بلد الخلافة الاسلامية . ويبدو انهم قد سمعوا بما آلت اليه أمور الخلافة فتقدم الامير أبو الحسن معز الدولة حتى وصل الى موضع قريب من بغداد ، وهنا هرب الامير ابن شيرزاد بعد ان دامت امارته ثلاثة أشهر وخمسة أيام . وكان الامير العسكري في هذه الفترة يقوم بمهام الدولة ، واستتر الخليفة المستكفي خوفا مما يحصل من فتن واضطرابات حتى اذا علم بخروج عساكر الاتراك عن بغداد الى الموصل هربا من البويهيين ظهر عندئذ . وفي هذه الاثناء اتصل به أبو محمد المهلبي (الذي صار وزيرا فيما بعد) وعرض عليه خدمته نيابة عن الامير البويهي معز الدولة . ثم وصل الامير البويهي الى شمال بغداد

---

(23) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري : 148 .

الى منطقة الشماسية فبعث اليه الخليفة بالهدايا . ثم جاء الامير البويهي الى الخليفة بعد ثلاثة أيام فخلــع عليــه الخليفة وألبسه طوقا ، وعقد له اللواء وقلــده الامــارة . وأخذت منه البيعة ، وحلف الامير البويهي بايمان البيعة للخليفة ، كما حلف أن يصون بعض حواشي الخليَفةومنهن علم القهرمانة ، والقاضي أبي السائب وأبي العباس ابن خاقان الحاجب ثم سؤل في أمر الامير ابن شيرزاد فأمنه وحلف له ،،، فانصرف الى دار الامير السابق مــؤنس الخادم ونزلها . فظهر عند ذلك الاميــر ابــن شيــرزاد ولقى الامير البويهي معز الدولة .

ويبدو أن علم القهرمانة أرادت أن تستوثق للخليفــة من الجند الديلمي وتأخذ منهم البيعة للخليفة المستكفي، لتأمن شر الامير البويهي اذا بدل أو غير من رايه تجــاه الخليفة حتى يكون له من هؤلاء الديلم أعوان ضد أميرهم معز الدولة . فبادرت علم بعمل دعوة عظيمــة حضرهــا الديلم فبلغ الخبر الى معز الدولة ، ونبه الى مــا تبغيــه القهرمانة من وراء ذلك خاصة وانها كــانت السبب فــي استخلاف المستكفي ، فدخل عند ذلك الامير البويهي دار الخلافة وجلس الامراء والقواد والحجاب حسب اماكنهــم كما تقضي رسوم دار الخلافة . وكان مشهدا تمثيليا أعده

الامير البويهي ، فبعد أن اتخذ كل مكانه بين يدي الخليفة مظهرين الطاعة والاحترام له ، تقدم جنديان من الديلم الى الخليفة المستكفي فظن أنهما يريدان تقبيل يده ، فمدها اليهما فجذباه وطرحاه الى الارض وحملاه الى الدار التي فيها معز الدولة ماشيا . ثم ألقى الديالمة القبض على حواشي الخليفة بما فيهم القهرمانة علم ونهبت بعد ذلك دار الخلافة .

ولم يكن الامير البويهي قد نسي حلفه والمواثيق التي عقدها على نفسه فقط ، بل انه أراد ان يزيل خلافة بني العباس السنية نهائيا وان يبايع لعلوي ، فاختار لهذا المنصب أبا الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلوي . ومعروف أن الديالمة كانوا شيعة على المذهب الزيدي ، فهم لا يعترفون بأحقية خلفاء بني العباس الشرعية في الخلافة ، ويعتبرونهم شأنهم شأن كل فرق شيعية مغتصبين لحق أبناء علي . الا أن بعض المقربين الى الامير البويهي منعوه من ذلك وخوفوه مغبة عمله لانه ان بايع العلوي اطاعه الديلم ، وقبلوا أمره في معز الدولة بلا تردد لانه سيكون الامام في نظرهم ورأيهم . ثم ان « بني العباس قوم منصورون تعتل دولتهم مرة وتصح مرارا ، وتمرض تارة وتستقل أطوارا ،،، » فعدل معز الدولة عن فكرته وجيء بأبي القائم الفضل بن المقتدر ولقب بالمطيع لله يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة

سنة 334 هـ (24) . أما الخليفة السابق المستكفي فقد أمر معز الدولة بأن تشمل عينه ، وان يشهد على نفسه بالخلع . وصودر بعض أتباع الخليفة المستكفي وكان منهم القهرمانة علم حيث أخذ منها (40،000) الف دينار ثم قطع لسانها (25) .

ويبدو أن سيطرة البويهيين على مقاليد أمور الخلافة وممارستهم السياسة الفعلية في دولة الخلافة ، اضافة الى اتخاذهم عواصيم متعددة كشيراز والري الى جانب بغداد ، وعدم الاعتماد على وزراء الخليفة ، أو على جيشه مما فوت الفرص لتدخل الحريم في السياسة أو ادارة الدولة ، ثم تلى هؤلاء السلاجقة وهم أتراك على مذهب أهل السنة سيطروا على المشرق الاسلامي ـ باستثناء مصر ، وأصبحوا مهيمنين على دولة الخلافة العباسية في الفترة ما بين 447 هـ ــ 552 هـ / 1054 ــ 1107 م وقد شغلوا بحروبهم شرقا ضد شعوب ودول آسيا الوسطى ، وضد الدولة البيزنطية والصليبيين غربا . ولذلك لم يعرفوا ترف بني العباس وميعة خلفائهم في أواسط عهدهم ، ولهذا لم تظهر القهرمانات في هذه الفترة . ثم تنتعش دولة الخلافة

---

(24) الهمداني : تكملة : 149 .
(25) ن. م : 150 وانظر العيون والحدائق : ج 4 ق 2 ص 182 .

بعض الانتعاش ما بين 552 هـ / 1107 م وسنة 656 هـ / 1258 م وهي السنة التي زالت فيها الخلافة على يد المغول . فيعود للخليفة مكانه وللوزير دوره في تمشيه ادارة الدولة ، لكن هذه الفترة من عهد دولة بني العباس لم تكن فترة قـوة حقيقية كشأنها في مبدء أمرها ، لذا عاد دور الحريم يظهر في مجيء الخلفاء أو تنحيتهم ، وعاد اشتراكهن في المؤامرات الا أنه على نطاق ضيق . ومما وصل الينا من أخبار هذه الفترة ما جاء عن قهرمانة الخليفة المقتدي بالله التي قيل عنها أنها كانت تدير شؤون دار الخلافة كما يدير الوزير شؤون ديوان الخلافة . وحدث بينها وبين الوزيـر عـداء فأصبح كل منهما يكيد للآخر . وفي هذه الاثنـاء يمـوت الخليفة فجأة بعد أن ناولته طبقا فيه طعام ، ثم تبادر الى ارسال غلام الى الوزير وتدخله حجرة من حجر دار الخلافة وتبلغه بأن الخليفة أمرها في تلك الساعة ان تتصالح مـع الوزير،وأنها بادرتالى ابلاغهامتثالا لامرالخليفةوأنهاعلى استعداد للتصالح معه ونسيان ما كان بينهما مـن عـداء ، فلما سمع الوزير ذلك بادر الى تقبيل يدها واعتذر اليها مما كان يبدو منه في حق أعوانها وأصحابها ، فقـالت لـه بأنها لا تقتنع الا بأن يحلف لها على المصحف ، ثم جاءته بمصحف فحلف لها وحلفت له ، فلما توثقت مـن أمرهـا قالت له : » أحسن الله عزاءك في أمير المومنين « وأبلغته

انها زمت أمر دار الخلافة ، وأن على الوزير أن يزم البلد حتى لا تقع فتنة ، وهنا طلب منها أن تدخله على ولي العهد كي يستوثق لنفسه فأدخلته على الامير أبي العباس احمد الذي أصبح فيما بعد الخليفة المستظهر بالله ، فقرر معه ما أراد ومضى ثم جلس الخليفة الجديد ، وأشيع موت الخليفة المقتدي بعد يومين (26) وواضح من هذا الخبر دور هذه القهرمانة التي دبرت أمر البيعة للخليفة المستظهر قبل ان يشيع الخبر في الناس فيحصل هرج ومرج أو تكثر الاشاعات وكانت هذه القهرمانة قد امتلكت الضياع فقد ورد عن حفيدها أبي الفرج ابن القهرمانة انه كان له أخ وكانا يعيشان من وقوف بنواحي دجيل وطريق خراسان ، وان هذا الشيخ أبي الفرج هو الذي حدث بحديث جدته .

وهكذا لعبت القهرمانات دورا سياسيا خطيرا في تاريخ بني العباس وهذا الدور يمثل جانبا من جوانب مساهمة المرأة في الحياة في العصر العباسي ، الا انه لم يسلط عليه الضوء الكافيء قياسا على الجوانب الاخرى من مساهمات المرأة كالادب والعلم والتي خصصت لها كتب الادب والتراجم مكانا ظاهرا بين دفتيها .

فـاس د . بدري محمد فهد

---

(26) ابن الساعي : الجامع المختصر : 41 .

المراجع والمصادر

1 ـ الآلوسي ... بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب
2 ـ بدري محمد فهد ... العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجري
3 ـ جرجي زيدان ... تاريخ التمدن الاسلامي
4 ـ الجواليقي ... المعرب
5 ـ ابن الجوزي ... المنتظم فى تاريخ الملوك والامم
6 ـ ابن خلدون ... المقدمة
7 ـ الزبيدي ... تاج العروس
8 ـ ابن الساعي ... الجامع المختصر
9 ـ مجهول ... العيون والحدائق
10 ـ مسكويه ... تجارب الامم
11 ـ الهمذاني ... تكملة تاريخ الطبري .

د: ب. م. ف